«تحت سطح الحبر» لسهيل كيوان:

ما نخفيه وراء كلماتنا التي نقولها أو نكتبها هو الاساس

د. نبيه القاسم

■ الانسان والمكان والزمان ثلاثة عناصر متشابكة ومتكاملة تُشكّلُ التكوينات الأساسية في العمل القصصي، صغُرَ هذا العملُ وتقلصت كلماته أو تمددّ وتوزّع على مئات الصفحات. فأيّ تحرّك للانسان لا بدّ وأنْ يكون ضمن حيّز مكانيّ وفي زمن مُحدّد. وتشابكُ وتكاملُ هذه العناصر الثلاثة تؤدي بالضرورة إلى التأثير والتأثر فيما بين بعضها البعض. ولأنّ كلّ عمل قصصي يعتمدُ أساسا على هذه المُكوّنات الثلاثة أو إثنين منها على الأقلّ، فإنّ هذا العمل لا بدّ أن يكون متأثرا، إنْ لم يكن نتاجا طبيعيا لهذه المكونات.

هذا يوصلنا إلى النتيجة المستخلصة وهي: إنّ النتاج القصصي ابن الزمان والمكان اللذين شهدا مولدَه، فجاء أمينا لهما راسما الصورة الأمثل، إمّا بالمباشرة الواضحة أو بالتلميح والترميز واستخدام مختلف الأساليب التي تنبّه القارئ إليهما. ولأنّ لكل مكان خصوصيّته وتميزّه ولكل زمان فرادته وسطوته، ولأنّ الانسان، المُكوّن الثالث المُتعالق والمُتشابك والمتأثر والمؤثّر في كلّ من الزمان والمكان، فإنّ لكل إبداع قصصي نكهته الخاصة المُدللة على مكان الحدَث والزمن الذي وقع فيه. فالقصص التي كتبها المبدعون الفلسطينيون في الخمسينات والستينات من القرن العشرين غيرها عن التي كتبوها في السبعينات والثمانينات من القرن نفسه، وهي غير التي كتبوها في التسعينات ويقدمونها في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. وهي تختلف مثلا عن القصص التي كتبها المبدع اللبناني في سنوات الحرب الأهلية في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين.

فالقصص الفلسطينية على امتداد أربعة عقود منذ النكبة عام 1948 كانت في معظمها تتمحور في موضوع الصراع العربي الاسرائيلي وتتغنى بالوطن وتنزف حبّا وشوقا للبيت والأرض، وتشكو من الغربة والتغريب، وتتعلق بالأمل وتحضن الحلم. وقليلة هي القصص الجيّدة للمبدعين الحقيقيين التي خرجت عن هذا الإطار.

وطالما أنّ لكلّ زمان ومكان إبداعاته ولكلّ جيل خصوصيّاته فإنّ جيلَ التسعينيات من أدبائنا المحليين كانوا ظاهرة غريبة في حقل أدبنا المحلي الذي اعتدناه، ورَفَضْنا لفترة تقبّل الذي يكتبونه مُعلّلين رفضَنا بخروجهم على كلّ المفاهيم والقواعد التي آمنا بها وعملنا على صَونها.

وإذا كان مُعظم النتاج الشعري لأبناء هذا الجيل لا يزالُ ضمن مُحرّماتنا ورفضنا، مع الاعتراف بوجود المُبدعين المُميّزين منهم، فإنّ القصة القصيرة تتألقُ وتتطوّر وتشقّ سبُلا لم تعرفها من قبل، إذا كان ذلك في الطريقة التي تُكتبُ بها أو المواضيع التي تطرحها أو الرؤية الدافعة بكاتبها.

وقصصُ سهيل كيوان في مجموعته «تحت سطح الحبر» نموذج لهذا المَنحى الجديد في قصتنا المحلية. فالثماني عشرة قصّة التي تضمّها المجموعة تتناولُ مواضيعَ خاصة وهموما ذاتية تبدو لا أهميّة لها إذا ما قارناها مع قضايا وهموم قصص الثمانينات والسبعينات والستينات من القرن العشرين، لكن القارئ سرعان ما يجدُ نفسَه مدفوعا إليها ومشدودا لطروحاتها ومُندمجا بهمومها التي سرعان ما يكتشفُ أنّها همومُه التي كان يتسترُ عليها ويخجلُ من التصريح بها أمام القضايا والهموم الكبرى التي كانت تسحبُ الجميعَ في تيّارها.

تبدو الهمومُ الاجتماعية والاجتماعية الذاتية هي الأكثر بروزا في قصص المجموعة تليها القضايا النسوية وعلاقة الرجل بالمرأة بينما تتوارى القضايا السياسية وتُطرَح فقط في ثلاث قصص بصوت منخفض هادئ بعيد عن الإثارة والتحريض.

عناوين القصص

نقول في مثلنا الشعبي: «المكتوب يُقرأ من عنوانه» و نقول: «اسم على مسمّى» وهذا يَدلّ على أهميّة العنوان ومركزيّته في فتح أغوار النص والدخول إلى كنوزه، وهو عنصر أساسي في تشكّل الحبكة. فالعنوان يخلق التوقّعات عند القارئ ويُدخله في حالة تحقيق الوعود المتوقّعة. وقد تكون هذه التي تتحقق بالفعل، أو قد تكون التطوّرات والنتائج مناقضة للمُتوقع ومُعاكسة للمأمول فيدخل القارئ في حالة من المفارقة اللامتوقّعة.

عناوين قصص مجموعة سهيل كيوان تندرج في خانة البَيْن بَيْن فهي تلامس النص إلى حدّ ما قد يقترب كثيرا مثل في قصة «رغم سذاجتك» حيث يُلقي لنا الضوء على ما سينتهي إليه سعي البطل لإظهار زيف وخداع المسؤولين في البلدية ونهبهم للأموال. وكما في قصة «ترانسفير» التي رغم إيحاءاتها وأبعادها السياسية إلاّ أنّها تهيئ القارئ لحالة تعاطف وانحياز إلى جانب القطة المُبعَدة عن بيتها. وهذا صحيح بالنسبة للعنوان «فندق نجومه نحس» حيث يتوقع القارئ أن لا تتم ليلة المبيت في الفندق على خير. بينما نجد العنوان في قصة «زفاف شاعرة» يجعل القارئ يذهب مع خياله للبعيد، ويتصور بطلة القصة شاعرة رقيقة تخوض تجربة جديدة طالما حلمت بها وانتظرتها فيستحضر الليل الهادئ الجميل والموسيقى الأخاذة ولحظات الحب الدافئة، فتكون النتيجة مفاجئة بانفجار الخلاف بين الزوجين في ليلتهما الأولى حول مدى تقدير الزوج الناقد لشعرها وشاعريتها. ومثل هذا نجده في عنوان قصة «رحلة صيد» حيث تكون النهاية بأن يكون الصياد هو الصيد والضحية الضعيفة الطالبة العفو والغفران. وكذلك عنوان قصة «الضيف» حيث يفاجئنا في نهاية القصة بأنه لا ضيف هناك وإنما الرجل الزوج هو نفسه الضيف حيث مثّل دَوْرَ الضيف ليضمنَ أن تقوم زوجته بإعداد الطعام له في الساعة المتأخرة من الليل.

وقد يشكل العنوان حالة خاصة يُدلّ على قيمة الكلمة وأبعادها مثل عنوان قصة «تحت سطح البحر» حيث تأخذنا الدلالات إلى تصوّر الحبر الذي تتكوّن منه الكلمات بَحرا واسعا عميقا يخفي المعاني والدلالات والأبعاد تماما كما البحر وما يخفي في أعماقه من عوالم وأسرار وكنوز.

ونجد عنوان قصة «عَولمَة» مُثيرا ومُستفزا لتتبّع ما يُخفي، فإذا بنا أمام مُسلسل سورياليّ غريب متتابع الحلقات الغريبة التي نجح الكاتب من خلال رَصْدها وتتبّعها أنْ يجعلنا نضحك بصوت عال على هذه الشعارات الرنّانة الحَداثية التي يحلو لنا التّغني بها. بينما نجده في عنوان قصة «لكل مقام حذاء» ينبهنا إلى حالات يواجهها كلّ منا في موقف ما في حياته حيث يجد نفسه في حالة غير متوافقة مع حذائه الذي ينتعله فيتضايق ويختل توازنه.

بدايات القصص

تشكل البداية في كل قصّة عنصرا مهما في النجاح أو الفشل، لأنّ البداية، بعد العنوان، هي خطّ الجَذب الأول الذي يُمسك بالقارئ. قد تتغيّر البدايات، وتتباين وتتنوّع وتتفاوت بين قصص هذا الكاتب أو ذاك ، وحتى بين قصّة وأخرى للكاتب نفسه، لكن الأساس يظل في قدرة الكاتب على ابتكار البداية التي تستحوذ على القارئ وتُبقي عليه، وتُثير فيه الرغبة لمواصلة تطوّر الحدَث.

بدايات قصص سهيل كيوان متجانسة في هدوئها وطرحها وتقديمها، وفي قدرتها على اجتذاب القارئ بسحر خفيّ مُتدرّج ليجدَ نفسَه وسط حدَث أو أحداث لا يُمكنه الفكاك منها وتجاهلها وانّما تدفعه للمُتابعة والزيادة في معرفة ما ستكون عليه النهاية، وفقط بداية قصة «ترانسفير» كانت مختلفة حيث يواجه القارئ، من الكلمات الأولى، بتأزّم ومُشادّة وتحدّ ووضع لا يحتملُ الانتظار وإنّما يستدعي الحلّ السريعَ، وتجعلُ القارئ يتساءلُ عن ماهيّة المشكلة؟ ولماذا هذا التحدي والرغبة في الحَسم السّريع؟ ومَن هي كنفوشة هذه التي أثارت ربّة البيت إلى هذه الدرجة وماذا فعلت؟ وكيف ستتطوّر الأحداث؟ بينما نجد بداية قصة «رغم سذاجتك» تُدخل القارئ من الكلمات الأولى في حالة عاطفيّة مثيرة تأخذ به إلى توقعات قريبة من الحبّ والعشق والجنس، ولكنها سرعان ما تتكشفُ عن حلم قصير لذيذ انتهى وعاد به إلى واقع اجتماعيّ يُعانيه كبقيّة الناس.

وهذا الحلم الجميل نفسه استعادَه الكاتب في قصة «نداء الجنيّة» لكنه سُرعان ما تحوّل إلى كابوس رهيب مخيف. بدايات قصص المجموعة، كما العناوين، مصيدة نجح بها الكاتب في أنْ يُدخلَ القارئ في شباك قبلَ تحكّمَها به فاستأنسَ وتابعَ تطوّر الأحداث، ورافق الشخصيات في كلّ مراحل تنقلاتهم. بدايات عاديّة تنقل حالة طبيعية تمسك القارئ بسذاجتها وعفويّتها لكنها تنجح في جرّه إلى خضمّ المشكلة التي تعالجُها القصة والشخصيات، ويجد نفسه طرفا أساسيا في صنع الأحداث إلى جانب أبطال القصة.

نهايات القصص

تعدّدت الدراسات حول النهاية في القصة، وطُرحت العديد من الآراء والنماذج، لكن الحقيقة تظل أنّ لا تحديد ولا نموذج ولا شيء يكون الضامن السحري لنهاية أيّ قصة، وإنما تظل تلك القدرة الذاتية والموهبة المتفردة هي الأساس وما عداها يكون التوابل المُطيّبة والمُحسّنة. وهذا لا ينفي أنّ الدراسة المتعمّقة والقراءة للنماذج العديدة وخوض التجارب واكتساب المعرفة هي أساس مهم في تكوين الكاتب وبلورة وصقل تجربته الإبداعيّة بما في ذلك قدرته على صوغ بداية القصة ونهايتها.

وسهيل كيوان في قصصه هذه نجح في معظم نهايات قصصه كما في بداياتها أن لا يدع القارئ ينفض يديه من القصة التي قرأها وإنما أسَرَه في همومها التي طرحتها وشدّه إلى سرّ سبكها وقيّده في شباكها التي يصعب عليه الفكاك منها سريعا.

ففي بداية القصة الأولى فاتح القارئ بحسناء عارية مغناج، لكنها سرعان ما توارت أمام هموم الحياة اليومية وتعقداتها وإن ظل طيفها من خلال «عامرة الصدر» يروح ويجيء حتى تكون النهاية ويأتيه صوتها الأنثوي المغناج لتؤكد له أنها تحبّه رغم سذاجته (ص 13) فتعيده إلى جوّ الحبّ الأوّل، والعشق والخيال والأحلام، مُخرجة إيّاه من حالات الانكسار والفشل والحزن.

وقصّة «تحت سطح الحبر» بدأها بجواب على سؤال والده: ماذا تكتب؟ مجيبا: لا شيء. (ص 17) لكن اللاشيء هذه كانت تختفي تحتها الأسرار والتحرّكات التي كانت تتفاعل في داخله وأراد التستر عليها، مدركا من حيث لا يعي ذلك يومها، أنّ ما نُخفيه وراء كلماتنا التي نقولها أو نكتبها هو الأساس. وهذا ما أنهى به قصته مُدلّلا على أنّ «أهميّة ما لا يكتب بقدر أهميّة ما يكتب! كلمات كانت ترفع تنورتها فوق الركبة وتكشف كشحها صارت متجلببة وتغض طرفها حياء! رقابات لا عين رأت ولا أذن سمعت، لبعضها أنياب مزرقّة تمزق لحم الكلمات، وأخرى ترمي فستقها وتوتها لنص أسير في قفص من ذهب! هكذا تعلّم البحث عن المستور تحت سطح الحبر، وفي تلال الأصداف الفارغة عن هديّة تسدّ رمق روحه الساغبة!». (ص19ـ20).

وهناك قصص كانت نهايتها مرتدة للبداية لتؤكد أنّ لا شيء يحرف الرغبة الانسانية مهما كُبّلت عن انطلاقها وارتدادها كما في قصة «ريمة الدراجة» التي كبتت في داخلها انجرافَها اللامعقول نحو رُكوب الدراجة التي كانت حلمَها في صغرها وحُرمَت منها بعد زواجها، فما كاد القيد ينكسر بموت زوجها حتى عافت كل ما لديها وسارعت لتعتلي الدراجة من جديد وتنطلق حرّة كذلك الطائر الذي يقف ثابتا في الفضاء متزاوجا مع رياح الآفاق الشاهقة. (ص 61) وقصص أخرى كانت نهاياتها بعيدة عن التصوّر، ولكنها جاءت ناجحة جدا تعطي للقصة خاصيّتها وجمالها مثل قصة «لكل مقام حذاء» حيث لم يتوقع أحد هذه النهاية الاحتفالية الجماهيرية. وأيضا قصة «ترانسفير» حيث كان التوقع أن تكون النهاية بتشريد كنفوشة وأولادها وانقطاع كل علاقة مع الأسرة لكن الذي حدث، رغم المعاناة وموت إحدى القطتين الصغيرتين، أن كانت النهاية سعيدة وقبلت الأم بكنفوشة واحتضنتها. (ص46)

نهايات معظم قصص المجموعة جاءت على غير ما يتوقعها القارئ. وفي بعضها جاءت بعيدة جدا عن محور الفكرة التي طُرحَتْ. فمثلا قصة «ترانسفير» عرضت قضيّة إبعاد الواحد عن بيته وأرضه وأهله مع كل ما يُرافق هذا العمل من قسوة وظلم وتعدّ، لكننا نجد النهاية تأتي لترسم لنا مشهد الوئام والتفاهم والمحبّة الذي يسود بين جميع أفراد الأسرة. ونهاية قصة «رحلة صيد» كانت بموت الصغير الذي أراد صيد حمامة جارهم فكان الموت نهايته. ونهاية قصة «فندق نجومه نحس» كان يرجوها أن تكون نهاية حب ودفء فانتهت باستحضار الأموات ومجالستهم.

هموم إنسانيّة

الأدب هو المرآة للذات الانسانية. مقولة طالما رددها الكثيرون ولا تزال تُردّد لما تتضمنه من حقيقة وصدق. والانسان قد تشغله الهموم الكبرى والقضايا العامّة، ولكنه إذا ما جلس مع نفسه سرعان ما ترتدّ إليه همومُه الخاصة فتكون شاغلته الكبرى وهاجسَه الكبير وخاصيّته وحده. وسهيل كيوان في بعض قصص مجموعته هذه تعرّض لبعض هذه الحالات الانسانية ومشاغل الذات، وأضاء جوانب من حالات النفس البشرية بإدراكه أنّ الطبيعة البشرية نفسها تفرض مَسيرةَ حياة الانسان مُعرّية إيّاه أمام زيف نفسه التي يُحاول التسترَ عليها وخداع الآخرين بإظهار تمسكه بالعادات والتقاليد التي يفرضها المجتمع كما تبدو في قصة «الشيب» حيث تبدأ بمشهد استنكاري لرجل يُقارب الخمسين من عمره يُغازل امرأة متزوجة في الأربعين من عمرها، وكيف يعلّق رجل آخر على تصرفّه قائلا لزميل له: «أنظر هذا الوسخ، إنّه لا يستحي على شيبته، بناته صرن صبايا وابنه صار طوله»، ويقرّر «إنّهما لا يستحقان سوى الموت» (ص31) وتمرّ الأيام ويصل الشاب الصغير الذي كان في الثامنة عشرة يوم استنكر ورفض حبّ العاشقين إلى سن الخمسين ووجد نفسه منساقا في قصّة حب عنيفة مع امرأة متزوجة في الأربعين من عمرها. ومن حيث لا يدري تخيّل وكأنّ هناك مَن يُراقبه ويستنكر عمله ويُصدر حكمَه عليه: «ألا يخجل هذا الرجل من شيبته! لقد صار ابنه طوله! إنه لا يستحقّ سوى الموت». (ص33) فمن هذه النهاية / البداية أراد الكاتب أن يؤكد أنّ الطبيعة البشرية لا تغيّرها السنوات وأن الحبّ لا يحدّه طول العمر، والعواطف لا تخمدها وتعطلّها همومُ الحياة.

وهذا ما عرضه في قصة «عشب» وقصة «أبو حسن بدون غانيات حزينات ولا جميلات نائمات».

ويعرض في قصة «تحت سطح الحبر» قضيّة القضايا عند كلّ مُبدع، وما يُواجهه من رفض وعَنَت في بداية طريقه الإبداعية، ثم ما يكون من حظّه من معاناة باتهامات الآخرين له والشك بالكثير من الذي يطرح، وكيف تلاحقه العيون المتابعة، القريبة منها والبعيدة. فوالده هزئ به في بداية طريقه: «لن تصبح شاعرا». ثم أخذ يضع القيود حول ما يجوز له أن يقول: «دعك من هذا! إنه لا يليق بك»، ثم كانت الرقابة الأصعب من قبل الزوجة المُلاحقة له «هذا ألهمتك به فلانة لا تحاول الانكار» ثم كانت الطامة الكبرى برقابة الأولاد، وهو يحاول التستر والإغراب والمحافظة على الصورة التي رسموها له في مخيلتهم، وهذا كله يستدعي منه مراوغة الكلمات وتغليف المعاني وإرهاق الرقباء في متابعتهم. وهكذا كما يقول: تعلّم البحث عن المستور تحت سطح الحبر، وفي تلال الأصداف عن هديّة تسدّ رمق روحه الساغبة». (ص20).

وفي قصة «لكل مقام حذاء» ينتبه لهمّ ذاتيّ ومشكلة قد تكون في منتهى الأهمية يتعرّضُ لها الكثيرون في بحثهم عن الحذاء المريح. وكيف قد يكون الحذاء مُسبّبَ الهمّ الكبير للواحد، ولا يجعله يرتاح إلى مجلس أو يفرح في رحلة أو يهنأ ساعة مناسبة.

إشارة مهمة

ينتبه قارئ قصص المجموعة أنّ سهيل كيوان لم يأت بالجديد اللافت لمبنى قصصه القصيرة، وإنما الجديد الجميل أنّه استطاع أن يمزج بين تقليدية المبنى القصصي وحداثيّة الطرح للموضوع أو الفكرة فأدخل المتلقي في حالة إحساس وقبول وشعور بالجديد غير المسبوق في المَزج بين الحالات المختلفة، ممّا تُلقي على العمل هالة أخّاذة تشدّ إليها، وفي الوقت ذاته تُبهر المُقترب منها.

فالكاتب استطاع وهو في أتون خلقه لشخصياته أن يستحضر الكلمات والأفكار والشخصيات فأبو العلاء المعري ينتصب بكل جلاله في قوله: «أكمش أصابعي داخلها وأخفف الوطء على رفات العباد». (ص 24). وماركيز وغانياته يتهادين في مخيلة أبي الحسن (ص132) وغاندي وترانسفيره يعود ليطرق في مسامع القارئ وهو يشهد صراع كنفوشة للبقاء. (ص 41ـ43).

كما أن الكاتب نجح في اجتراح بعض التعابير الجميلة الشاعرية والصور ذات الإيحاءات المتعددة مثل: «على شفا حفرة النار استعصت وابتعدت. لاهث بين اللقمة واختها» (ص9) موظفا مسحوبا من مسلسل سوري. حقيبة ذات ملامح خطرة (ص 10) التي هو لباس لها وهي لباس له، تربط بين تراب الواقع ونار النص». (ص 18) «العلاقة بين فراشة الروح ولهب الطين». «ألحت عليه بيضة النص الشائكة. تنزف عواطفه حبرا. كلمات كانت ترفع تنورتها فوق الركبة وتكشف كشحها صارت متجلببة وتغض طرفها حياء» (ص 19)، «صراطا مستقيما إلى فردوس الشهوة وجحيمها» (ص31). بدأت أنامل النشوة تلامس جسدها .. مثل ذلك الطائر الذي يقف ثابتا في الفضاء متزاوجا مع رياح الآفاق الشاهقة». (ص 60ـ61) «مَن حملته وهنا على وهن». (ص111)

كلمة أخيرة

يظل الكثير مما يجب أن يقال عن قصص سهيل كيوان في مجموعته «تحت سطح الحبر» لما في هذه القصص مما يستحق التناول والتحليل مثل تلك الأفكار التي عرضها حول موقف الرجل من إبداع المرأة وتشككه في إبداعها وخلقها «قصة زواج شاعرة». وموقف الرجل الرافض لأي علاقة عاطفية لشقيقته وحتى قريبته. بينما يجيز لنفسه كل علاقة سنحت. «قصة لمَن يرن الهاتف». وغير ذلك. كما أن بعض قصص المجموعة تحتاج إلى تحليل منفرد مفصّل لما فيها من جوانب وتجديدات تستحق ذلك التخصيص.

* كاتب من فلسطين

لطالما كتبتُ

صباح زوين*

■ طالما كتبتُ، وكتبتُ، ولطالما ملأت أعمدة وزوايا وأسطرا في الصحافة، ولم أنتبه الى الكمّ الذي أفرغته من عندي في مساحات الورقة اليومية سوى اليوم، عندما قررتُ أن أجمع مقالاتي وأن أرتبّها لأرشفتها. فتذكرتُ مواد مهمة كنتُ قد نسيتُها، من نقد شعر أو رواية، ومن نقد في السينما ومن حوارات في السوسيوليوجيا والسياسة وحوارات مع أدباء وترجمات. بل كتبتُ في الترجمة ولم أترجم فحسب، إنما ليس لأني مولعة بها على الإطلاق بل لأني مولعة بالفيلولوجيا والإيتيمولوجيا وهما مادتان تشغلانني على الدوام. فالكلمة بجذورها وأصولها وفروعها هي التي أقع في غرامها وهي حافزي وهدفي منذ صغري حتى اليوم (كتبت حول هذا الموضوع مقالا مفصلا في ملحق الجريدة اللبنانية في 5 ايلول ـ سبتمبر 2004). كذلك هي علاقتي باللغات التي أعرفها، بحيث أنها علاقة فيلولوجية وليست علاقة ببغائية في حفظ اللغة أياً كانت.

«الكلمة»، في كل ما تعنيه هذه الكلمة، في كل ما تحمله من إشارات ورموز ومعان وثنايا وطبقات، هي وحدها تعنيني. ولستُ أفهم كيفَ استطعتُ أن أمغط «الكلمة» كل هذا التمغيط لكي أكتب، على مدى عقدين من الزمن، كل تلك المقالات حيث كنتُ أتقاتل يومياً مع تلك الكلمة من اجل ان لا تتكرر وأن لا تذبل وأن لا تذوب وأن لا تبوخ وأن لا تتعفّن. وكان عذابي كبيراً، ليس فقط بسبب مشاكستي مع الكلمة، إنما وبشكلٍ خاص بسبب ما أنفقته من طاقة بعيداً عن الشعر.

وكتبتُ قبل سنتين عن «زنوج الكتابة» (في الصفحة الثقافية للجريدة حيث كنت أعمل) وكتبتُ في الفترة ذاتها 3 تشرين الاول (اكتوبر) 2004 في ملحق الجريدة عن الجامعات التي تعلّم كتابة الشعر في المانيا وانتقدتهاً، وقبل عشر سنوات كتبت في جريدة عربية تصدر في لبنان عن الجامعات التي تعلّم كتابة الشعر في كندا وأيضاً انتقدتها. انتقدتها فقط لأنها غير بريئة، إذ تفعل هذا لأسباب اقتصادية صرفة، هذا من ناحية. من ناحية أخرى، ما ينتج عن هذه الجامعات، هو نموذج أو لنقل «مساطر» متشابهة من الكتاب كما من الكتابة: «فالكاتب» هنا لا يكون خلاقا إنما تلميذا بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! إني لا أتكهن: إذ حضرت شخصيا قراءات لـ«كتاب» من هذا النوع ورأيت انهم جميعهم ، أولا متشابهو الأسلوب، ثانيا أنه أسلوب مدرسي مدروس وليس تقنية إبداعية والفرق شاسع بين هذا وتلك، ثالثا يشعر المرء إزاء هكذا كتابة إنها غير حرة و«الكاتب» يكون داخلها كمن لا يجرؤ على الخروج على «القاعدة» التي لقنوه إياها!

لكن وفي اي حال أين نحن من تلك الجامعات المنظمة؟! ليتنا نملك في بلداننا هكذا كليّات، لكنّا تجنبنا همجيات الشعر وأكاذيب الكذابين. فنرانا في بلداننا في غياب تلك المعاهد أو الجامعات، لكن نرانا في حضور الكتاّب الزنوج، وأصبح كل شيء مباحاً، كل شيء مبتذلاً.

وما أبشع من الغش سوى الوقاحة حيث التافه ينتقد التافهين والقطة تنتقد القطقوطات، وما أحلى السلطة، ما أحلى المرء عندما يكون مصفَّحاً بالنفوذ وبالدعم المعنوي ولو ظلماً. لكن لا أطالب السلطات المعنية بأن تنشئ معاهد تعلّم كتابة الشعر (وفي أي حال ليس الهدف من ذلك في الغرب سوى اقتصادي محض كما قلت أعلاه) بقدر ما أطالبها بأن تنشئ مكاتب تهتم بالترويج للشعراء . بكلام آخر، أتمنّى إنشاء مكاتب تؤمّن لكل شاعر وشاعرة وكيلاً يروّج له ولها إعلامياً، أي يروّج لكل كتاب يصدر ويسعى له في الصحف من أجل الدعاية، تماماً كما يحصل في الغرب حيث دائماً ثمة «موظّف» يقيم الصلة بين الشاعر ودار النشر والصحافة. أطالب بذلك من أجل حرية وديموقراطية الشاعر عامة، والشاعرة خاصة، أي الشاعرة التي تصنع إسمها بذاتها، بعرق جبينها، والتي تتكّل على عملها فحسب. فتتساوى عندئذٍ الحظوظ، ولو أن المساواة هنا ظلم!!

هذا الكلام يعيدني بعض الشيء الى فيلم شاهدته مؤخراً، «مذكّرات غيشا»، حيث يمكنني المقارنة بين حياة بعضهن ممن يحببن الشهرة (اما بحث الشاعر عن اعتراف العالم بأعماله في الصمت وبعيداً عن الصخب فشيء آخر) ويأتين خطأً إلى «الكتابة» مثلاً، بدل ان يذهبن إلى الطرب أو الرقص أو عرض الازياء وما يدعو للسخرية هو انهن ينتقدن الراقصة وعارضة الازياء! وهذا يذكرني بمثل شعبي اسباني يقول: «الميّت يفزع من القتيل»!، إذن أقارن بين حياة بعضهن ممن يلهثن وراء الأضواء، وحياة تلك الغيشات اليابانيات: فهذه كما تلك، لا تجد الحصانة والنفوذ سوى بدعم من الرجال، ذوي النفوذ والسلطة والمال، إذ أولئك لا يحبون سوى اصناف القطط.

لكن هذا الكلام بدوره يأخذني قليلاً إلى سلطة الجسد، بعيداً بعض الشيء عن السلطة الأخرى، لأعبرّ عن إعجابي بطريقة تناول موضوع جسد المرأة في هذا الفيلم. فهو جسد خفي وأثيري ولو حقيقي، وجميل لأنه سرّي، ومدهش لأنه علنيّ، لكن علنيّته مهذّبة وذات استيتيكية عالية، راقية. إنه الجسد الجمالي! إنه الجسد الشعري بامتياز ولما كان لاق بكازانوفا (فيلم كازانوفا، أو لنقل البطل كازانوفا خفيف الى حدّ بعيد) ولا ببطل لوليتا لنابوكوف (بعيداً عن التزمّت البروتستانتي الامريكي، لستُ أفهم كيف يستطيع بعضهم أن يمدح ما يُسمّى علمياً بالبيدوفيليا! على الارجح، هذا البعض لا يميّز بين الحرية الجنسية الجميلة وبين الفوضى المؤذية).

يقول بورخس في حوار كنتُ قد ترجمته قبل سنتين (أيضا في الجريدة المذكورة أعلاه) ولم يُترجم من قبل الى العربية، يقول (رداً عن هذا السؤال: «بورخس، هل الفن طريقة لبلوغ الأبدية؟»): «بما اني لا أتوقّع بلوغ الأبدية، فالأمر لا يهمّني».

لم يكن يهتم بورخس بالأبدية إذ لم يكن يؤمن بها، وكان يرى إلى الدين كإحدى الفانتازيات الأدبية وكان يرى الى حتمية الموت بعين زاهدة كي لا أقول باردة. بورخيس كتب كثيراً ولم يأبه لنرجسيّته.

وأتساءل، عمّا قد يبحث كل مرء يطبع (ولا أقول يكتب) كتاباً؟!

قد يبحث عن اشباع أناه وأنانيته وغريزة نرجسيته وغروره، هذا في أسوأ أحوال التفاهة، وقد يبحث عن الأبدية، هذا في أفضل أحوال العمق، لكني لم ألهث يوماً وراء الأبدية اذ ذهبتُ إلى أبعد منها قبل ان أعيها، ذهبتُ رغماً عني الى ما هو أصعب منها، لأني كتبتُ الشعر في محاولة مني لفهم الكلمة،هذا فحسب،ولم أقم سوى بذلك، سوى بالوقوع في شرك الكتابة والحرية كما وقعت الغيشا في شرك الطاعة والعبودية. نهاية، قلت دائما لكل من يسألني، الشعر ليس إلهاما (كلمة رديئة إذ عتيقة)، إنما فعل كتابي فحسب. فعل كتابي حر يضاف إلى حالة شعرية نادرة !

* كاتبة من لبنان

«مرايا التذوق الأدبي : دراسات وشهادات»

عمان ـ «القدس العربي»:

عن دارة الفنون «مؤسسة خالد شومان» في عمان بالتعاون مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر في عمان وبيروت، صدر كتاب «مرايا التذوق الأدبي: دراسات وشهادات» ضم حصيلة الشهادات والمحاضرات التي استضافتها دارة الفنون خلال الفترة الماضية.

يقول الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله في مقدمته لهذا الكتاب «جاء محور (مرايا التذوق الأدبي) ليدفع فكرة تأمل الأعمال الإبداعية من داخلها استكمالا لما بدأته دارة الفنون، من أجل تقديم نماذج نقدية جمالية تتأمل عددا من الأعمال الأدبية من منظور يتجاوز المهمة التقليدية للنقد، وقد ساهم في هذا المحور عدد من النقاد والمبدعين الذين تشكل تجاربهم جزءا أصيلا من حركة النقد وحركة الإبداع في العالم العربي عبر مساهماتهم المتتالية على مدى عقود وعقود، لقد ترك المجال واسعا لكل ناقد لكي يتأمل الأعمال الأدبية التي يريد، ولا شك أن العلاقة الروحية التي تربط بين الناقد والنص الذي اختاره جزء أساس من إعطاء مزيد من الحرية لفتح أبواب النصوص وتأملها من داخلها برحابة وحب، وإلى ذلك تم تنظيم أربعة محاور حول إنجازات كل من المفكر إدوارد سعيد، الشاعر فواز عيد، والشاعر علي فودة، وآخر حول صورة عمان بين الرواية والوثيقة التاريخية.

أما هذه الشهادات فهي: إدوارد سعيد «النظرية والوعي النقدي» فخري صالح، «خارج المكان: سيرة التحرر من المنفى»، د. خليل الشيخ، «الثقافة والإمبريالية تتخطى الثقافة والمجتمع» د. محمد شاهين، «الكتابة عن فواز عيد استعادة لأزمنة وأمكنة وصداقات»، رشاد أبوشاور، «فواز عيد تغلب على المعاناة بالشعر»، د. إبراهيم خليل، «علي فودة : ملامح التجربة الشعرية»، د. محمد عبيد الله، «عمان بين الرواية والوثيقة»، محمد رفيع، «دفاتر الطوفان شهادة المحو والتدوير» سميحة خريس، «الدامر: شهادة في رواية الشهبندر» هاشم غرايبة، «مسارات النصوص، مسارات القراءة، «مداخل في قراءة النص الشعري» د. زياد الزعبي، «دهشة التفاصيل الصغيرة ـ دراسة في بنية القصة القصيرة» عبد الله رضوان، «مذهب الصورية في الشعر، قصيدة الأرض اليباب مثالا» د. عبد الواحد لؤلؤة، «طريق الشعر والسفر» أمجد ناصر، «اللغة الناقصة» عباس بيضون، «تجربتي القصصية» فخري قعوار.

أدوات للغواية

سمر دياب *

خلخال

قد تنفجر عين في الأرض .. قبل أن اصل الماء ..
ياهذا الذي ستكسر لي القصيدة ..لا تجر وراءك كل هذي البحيرات ..مازلت أحتفل بالبخار الصاعد من شقوقي
لا من مطر في عيني يسعفني ..
تلك الغيمة تطعن السماء بخنجرها ..يفتح النهر بارا لنسوة الفجر و السواد ..
بيديها فقأت الشمس أعين الحصادين والرعاة .
.ومازلت أشكر من فرّغ قرنفلة فيّ .. لأتنصل من القيامة وضوضاء الملائكة على الطرقات..
كل الحلم نساء قاربن الجفاف ثم التحمن بلعاب المرايا..
وكما هذا الغبار سيدك .. حين تتصدع نوافذ الأرض..
كذا .. هذا الهواء ..خطاب للأعاصير.. وسيد النورس البعيد..

أهرطق كأذان الفجر ..
تشق التفاحة نصفين فلا أرى وجهك أو صدر أمي فيهما ..
أنسل كنعناع غابر .. أبحث عن كوكب فيه أكبر..
تحضنني السنون .. أرسم للجمر فما و عيون ..نبيا أدعو الطين .. و أصفق بعيني لقمر ينتصف بالسر..

شاخ الشفق وأنا أتلو نحل الذاكرة ..وأستل خيلي المرصع بالحبر ومن فرط رائحة الغياب
أشم وجهك..
عنب القلب يصهل .. ويدحرج وجنتي على الرمال
كي تجف امرأة تحت الليل..
ولا من مطر يسعفني .. ولا من غيمة تود أن تنتحب..

الرابعة صباحا .. تصحو ركبتاي ..
تفرد الجدران شعرها الطويل على قلبي وأنا..
تقتلني تفاحة عارية في الحلم..يذبحني فنجان القهوة في السر .. .. واهرطق كمئذنة ..
تلك البلاد تعرق حتى في ذاكرة الشهوة ..
وتخمشني ..

لو يعلم الله أن لي قلبين.. ساعة يشاء أحاور البحر
كي يبقى رطبا
وساعة أشاء أقف على رمش الريح لأغني ..

طيوري النازفة ..
أرفع صرخة تعتذر من أجنحتكم..
انا لم أغب يوما ..
أنا لم استقل من مناقيركم .. لكني ..
كنت أوزع بلحا للغيم ..
لأشهق جيدا بين صخرتين ..
وأهرطق كموجة .. ثم أطفئ اللحظة وأنام ..ولا من غيمة تود أن تنتحب ..

ياهذا الذي ستكسر لي القصيدة ..
لا تجر وراءك كل هذي البحيرات.. ولا ترمي في رائحتي حجرا لتعد كم دائرة ستمزق صمت الحمام..

لحظة ...

أفتح طعنتي لتضحك مصابيح الشوارع ..وأرافق البكاء لينتقي اهدابا طويلة الشرود .. ويسلم على العاصفة..

أهوي كموتى باذخين تحت ظل سفينة قبيحة النهدين ..وشمس تحارب المطر العالق في أسفل الشفة ..
كل لؤلؤة أهديتها فجيعا و وريدا معطلا و رواية عن الحرب ..
وتلك الغيمة لا تود النحيب وتشتم فجرا أيقظها من حلم يسيل لعابه على فخذيها ..
وأهرطق كقلادة ..

كلما صحوت لأربط شعري بجسر وطيد ..
أفترق عن حاضري و أعدو كأبواب الجنة الى الغابات..
مذ قال التوت للأقدمين فيّ بحر منهك الدفق ..
والشعراء يتأو